شبكة العلاقات الاجتماعية ودورها في بناء المجتمع المتحضر
(قراءة في مشروع مالك بن نبي الإصلاحي)

"The network of social relation and its role in building a civilized society
(reading in the reform project of Malik bin Nabi)

حشلوف محمد العابد[*1]، جامعة وهران 02- محمد بن احمد- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022/08/07 تاريخ القبول: 2022/11/18 تاريخ النشر: 2023/07/11

ملخص: نحاول في هذه المداخلة بوجه عام، إبراز دور "شبكة العلاقات الاجتماعية" في رسم الطريق للسير نحو ركب الحضارة للمجتمع العربي الإسلامي عامة والجزائري خاصة، من خلال المشروع الإصلاحي النهضوي الذي تبناه(مالك بن نبي)، كون هذه المجتمعات عاشت حالة من التخلف منذ مدة ليست بالقصيرة، أَرَّخَ لها (مالك بن نبي) من سقوط (دولة الموحدين) حتى وقتنا الراهن. ومنه، فقد ناقش (مالك بن نبي) قضية "شبكة العلاقات الاجتماعية" في مواضع متعددة من أعماله الفكرية، وشدد على أهميتها في تحليل آليات بناء "المجتمع التاريخي المتحضر" بحكم أنَّ هذه الشبكة هي كما أكد (مالك بن نبي) العمل التاريخي الأول الذي ينجزه مجتمع ما ساعة ميلاده، ولأنَّ طبيعة هذه الشبكة هي المؤشر الأساس الذي يدُلُّنا على درجة قوة أو ضعف المجتمع.

غير أنَّ أهم ما تقوم به هذه "الشبكة" إنَّما هو تحديد موقع كل فرد في المجتمع بالنسبة إلى غيره من الأفراد والدور الاجتماعي المنسجم مع مؤهلاته الفردية الفطرية والمكتسبة بما يحفظ للمجتمع انسجامه وتناغمه وقدرته على الأداء المتناسق والفعَّال للوظيفة التاريخية المنيطة به.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، المجتمع، الفرد، العلاقات الاجتماعية، التاريخ، النهضة، الحضارة.

Abstract: In this intervention, in general, we try to highlight the role of the network of social relation in charting the path towards the advancement of civilization for the Arab- Islamic society in general and the Algerian society in particular, through the renaissance reform project adopted by (Malik Bennabi), since these societies have lived in a state of backwardness for quite some. In short, he (Malik bin nabi) chronicled her from the fall of the "Almohad" dynasty until the present time.

[*] حشلوف محمد العابد:hachmohammedabed@gmail.com

From him, (Malik bin nabi) discussed the issue of the network of social relations in various places in his intellectual works, and stressed its importance in analyzing the mechanisms of building a "civilized historical society" by virtue of the fact that this network is, as (Malik bin Nabi) emphasized, the first historical work accomplished by a society What is the hour of his birth, and because the nature of this network is the main indicator that tells us the degree of strength or weakness of society.

Keywords: Malik Bennabi, society, the individual, social relation, history, renaissance civilization.

مقدمة:

لطالما تميز الفكر العربي المعاصر عند أغلب المفكرين العرب الذين عايشوا هذه المرحلة من الفكر الفلسفي الإنساني، بالنزعة النقدية والرفض لما هو قائم، كون مجتمعاتنا العربية والإسلامية تعيش حالة من الركود والانحطاط، وهو ما دفعهم إلى إيجاد مختلف الحلول للنهوض بها وإخراجها من قوقعة التخلف.

فقد كانت هناك عديد المحاولات النهضوية في الفكر العربي المعاصر ومنذ الإرهاصات الأولى لظهوره، أبرزها المشروع الإصلاحي النهضوي الذي نَظَّرَ له (مالك بن نبي)، والذي من شأنه أن يرتقي بمجتمعاتنا العربية والإسلامية بوجه عام ومجتمعنا الجزائري بوجه خاص إلى ركب الحضارة.

ولمَّا كان المقصد الوصول بمجتمعاتنا إلى الحضارة وفعل التحَضُّر، كان لزاماً عليه أن يدرس "المجتمع" من جميع الجوانب التي يمكن أن تحيط به، وتؤثر عليه بشكل مباشر أو غير مباشر، فدرس (مالك بن نبي) مؤسسة "المجتمع" دارس عالم الكيمياء للمواد الكيميائية وعالم البيولوجيا للكائنات المجهرية في المخبر.

وبالحديث عن "المجتمع"، يتولَّد آلياً الحديث عن العلاقات الإنسانية فيه، لأنَّها المُكون الأساسي له، ومحرِّكه الفعلي، فتناولها بدورها كزئية من ذلك الكل المركب "المجتمع" مجسداً إياها في مصطلح "شبكة العلاقات الاجتماعية"، الذي أكَّدَ على ضرورة بنائها والعمل على تفعيلها وإنجاحها في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

- فما هو المجتمع من منظور(مالك بن نبي)؟ وما هي أقسامه عنده؟

- وكيف تكون شبكة العلاقات الاجتماعية عاملاً أساسياً وفعَّالاً في رسم طريق الحضارة للمجتمعات العربية والإسلامية بوجه عام؟

1) مفهوم المجتمع عند (مالك بن نبي):

يرفُض (مالك بن نبي) أي تعريف للمجتمع لا يأخُذُ بعين الاعتبار البُعد الحضاري للوجود البشري ووظيفة الإنسان في التاريخ. والسبب في ذلك هو أنَّ تعريفاً يخلوا من البُعد الحضاري للوجود البشري، لا يُمكن أن يُقَدِّم تفسيراً واضحاً ومُقنعاً للوظيفة التاريخية التي هي مُبَرِّر وجود المجتمع البشري في هذه الحياة (عمر النقيب، 2009، ص: 160)، فأغلب علماء الاجتماع يَتَّفقون على تعريف المجتمع في إطلاقه وعمومه، لكنَّهم يختلفون في الحركة التاريخية للمجتمع، وإذا كان (مالك بن نبي) يَتَّفق مع علماء الاجتماع في التعريف العام للمجتمع فإنَّه يختلف معهم في وظيفته وعن ذلك يقول (زكي ميلاد، 1998، ص: 115): **"نذكر أنَّ مصطلح (مجتمع) في معناه البسيط-المعنى الأدبي- الذي يعطيه -القاموس- يعني: تَجَمُّع أفراد ذوي عادات مُتَّحِدَة يعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة" (مالك بن نبي، 1986، ص: 15)**، وفي نقده لهذا المفهوم يمضي قائلاً (زكي ميلاد، 1998، ص: 115): **"وهذا تحديد خارجي وصفي، لا يُعطي أدنى تفسير (للوظيفة) التاريخية التي تناط بتَجَمُّع من هذا القبيل، كما أنَّه لا يُفَسِّر تنظيمه الداخلي، الذي قد يكون كُفئاً لأداء مثل هذه الوظيفة. فمن الضروري إذن أن نزيد في تحديد نطاق موضوعنا. ولذا ينبغي أن نستبدل بالتحديد الوصفي تحديداً جدلياً، وبعبارة أخرى: ينبغي أن نُحَدِّد (المجتمع) في نطاق (الزمن)" (مالك بن نبي، 1986، ص: 15)**، فهو لا يعدو أن يكون مُجَرَّد تفسير وصفي للمجتمع. ولا شَكَّ في أنَّ عبارة "في نطاق الزمن" ليست إلَّا من قبيل تناول الظاهرة كما هي في الواقع الفعلي للحياة البشرية وفي مرحلة حضارية مُحَدَّدَة لمجتمع ما من المجتمعات البشرية التي عرفها التاريخ. (عمر النقيب، 2009، ص: 160).

2) أقسام المجتمع عند (مالك بن نبي):

هذا النقد في تحديد المجتمع بوظيفته، يدفعه إلى تقسيم (المجتمع) إلى نوعين:

-المجتمع الطبيعي

- المجتمع التاريخي.

وفي توضيح هذين النوعين يقول (مالك بن نبي) (زكي ميلاد، 1998، ص: 116): **"والنوع الأوَّل يُحَقِّق نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي تُمَثِّلان هذا النموذج" (مالك بن نبي، 1986، ص: 09)**، فإنَّ هناك نوع من التَجَمُّعات البشرية التي لا تتجاوز مُجَرَّد مُحاولة الاستجابة لمطالب الغريزة وعلى رأسها مطالب الجسد. ويَتَمَثَّل هذا النوع عادة في المجتمعات البدائية التي لم تَتَمَكَّن من القيام بأيَّة محاولة لإحداث تغيير في خصائص أفرادها أو أُسلوب الحياة أو أدواتها منذ لحظة ميلاده. كما يَتَمَثَّل أيضاً في بعض المجتمعات الحديثة التي لم تستطع إحداث تغيير في بنيتها وخصائصها، إذ على الرغم من مرور عقود من الزمان على استقلالها، لم تَتَمَكَّن من بلوغ درجة من البناء الدَّالة على انتقالها من وضعيَّة التَخَلُّف الناتج عن السُكون إلى وضعيَّة التَقَدُّم الناتج عن الحركة التغييرية الهادفة وفقاً لرُؤية رسالية مُتكاملة، لنموذج "الفرد" و"المجتمع" المنشودين (عمر النقيب، 2009، ص: 169): **"فالمجتمع المُتَخَلِّف ليس موسوماً حتماً بنُقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنَّما بافتقار للأفكار" (مالك بن نبي، 1988، ص: 36)**، وهنا تكمُن الخُطورة إذ تفقد الفكرة وظيفتها، فتُدفن في غياهب اللَّاشعور وأدغال الذاكرة التاريخية (عبد القادر بوعرفة، 2006، ص: 71)، وذلك لأنَّ أي نشاط يقوم به الفرد، هو ترجمة لمجموعة من الأفكار والتَصَوُّرات التي تسبق الفعل، فإذا كانت الأفكار التي يحملها المجتمع أصيلة وفَعَّالة فإنَّها تدفع بحَرَكِيَّته التاريخية نحو التَطَوُّر، أمَّا إذا كانت أفكاراً من النوع "الميت" أو "المميت" فإنَّها تعيق نمو المجتمع وتجعله صعباً إن لم نقل مستحيلاً (محمد عاطف، 2009، ص: 22).

أمَّا "المجتمع التاريخي": **"فإنَّه يُحَقِّق النموذج المُتَحَرِّك، أعني المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير، الذي يُعَدِّل معالمه من جذورها" (مالك بن نبي، 1986، ص: 10)**، فالمجتمع التاريخي هو ذلكم النوع من المجتمع الذي استطاع أفراده أن يتجاوزوا وضعية "المجتمع الطبيعي" بإضفاء بُعد حضاري ودلالة تاريخية على وجودهم الكوني من خلال إدراكهم لحقيقة الوجود البشري في هذه الحياة والوظيفة التي أُوجِد من أجلها الإنسان. وبناءً على هذا الفهم والإدراك يَتَأَسَّسُ المجتمع التاريخي ابتداءً، أين يُمارس عناصره المُكَوِّنة له نوعاً من التفاعُل القائم ليس على أساس مبدأ المُحافظة على النوع، وإنَّما على أساس أداء رسالة مُقَدَّسَة في الحياة، تليق بمقام الإنسان كمخلوق مُكَرَّم يحظى بمركز مُتَمَيِّز في الكون والحياة

(عمر النقيب، 2009، ص: 172): **"وبصفة عامة فعلى محور يُمَثِّل سائر مراحل التَطَوُّر، يحتل المجتمع التاريخي معاصراً كان أو تالياً مرحلة مُحَدَّدَة. والتاريخ يُسَجِّل منها ثلاثاً: (مرحلة المجتمع قبل التحضر- مرحلة المجتمع المُتَحَضِّر- مرحلة المجتمع بعد التَحَضُّر) والمُؤَرِّخون يُمَيِّزون جيِّداً في العادة بين الوضع الأوَّل والثاني ولكنَّهم لم يهتموا بالتمييز بين هذين الوضعين والوضع الثالث. فهم يرون أنَّ مجتمع ما بعد التحضر هو بكل بساطة مجتمع يواصل سيره على طريق حضارته، وهذا الخلط المؤسف يولد أنواعاً أخرى من الخلط والالتباس تزيف وتفسد المقدمات المنطقية التي يرتكز عليها الاستدلال على الصعيد الفلسفي والأخلاقي وعلى صعيد علم الاجتماع، وحتى على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، عندما يزعم البعض أنَّه استناداً إلى مثل هذه المقدمات يمكن طرح مشكلات البلاد المتخلفة و إيجاد الحلول لها. وقد يستغل هذا اللُّبس أحياناً المُتَخَصِّصون في الصراع الفكري، عندما يتولون هم أنفسهم أو يكلفون أحد تلاميذهم محاولة إقناعنا في قياس منطقي خاطئ بفشل الإسلام في بناء مجتمع متقدم ولكي نزيل هذا اللبس نقول: بأنَّ مجتمع ما بعد التَحَضُّر ليس مجتمعاً يقف مكانه بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها" (مالك بن نبي، 1988، ص: 37- 38).**

وينشأ "المجتمع التاريخي" حسب (مالك بن نبي): **"بطريقتين: فهو إمَّا أن يَتَرَكَّب ابتداءً من مواد جديدة أي من مواد لم تتعرض لأي تغيير تاريخي سابق، فهو يستنفذ هذه المواد في الحالة التي تكون عليها في الطبيعة، وبهذه الطريقة نشأت المجتمعات التاريخية الأولى، إبان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد. ولكن هذا النوع قد يَتَكَوَّن أيضاً من عناصر استُخدمت في مجتمع تاريخي سابق تَحَوَّلت عناصره المُكَوِّنة له بسبب تقادُمه، أو انبساط رُقعته،إلى عناصر مُهَيَّأة للاستخدام في مجتمع جديد. وقد تكون الاستعارة في صورة هجرة تنزع هذه العناصر من المجتمع الأم، كالهجرة التي كَوَّنت المجتمع الأمريكي الحالي، وهو المجتمع الذي تَكَوَّنَ من عناصر قَدَّمَها له مجتمع مُتَحَضِّر في حالة تَوَسُّعه، هو المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر..." (مالك بن نبي، 1986، ص: 10).**

وعليه، فإنَّ: "مشكلة الإنسان في العالم الإسلامي مرتبطة بالحركة التاريخية، بل أنَّ للبعد التاريخي باع كبير في مشكلة مصير الإنسان، ولذلك فَسَّرَ (مالك بن نبي) التَحَوُّل التاريخي في مسيرة الإنسان الشاهد، بالسنة الكونية الثابتة المُتَمَثِّلَة في "قانون الدورة"، فلكُلِّ حضارة ثلاثة محطات تاريخية مثلها مثل: الإنسان، ميلاد، قوة، ضعف، أو بمعنى آخر طفولة شباب، شيخوخة، وعليه يكون الإنسان

الشاهد قد خضع للحتمية التاريخية السابقة (عبد القادر بوعرفة، 2006، ص: 69)، ولَعَلَّ من المناسب، ونحن نُناقش قانون "الحركة" باعتباره من أهم خصائص "المجتمع التاريخي" المُتَحَضِّر، أن نُشير هنا إلى النموذج (الماليزي) الذي عايشه الكاتب- أي (مالك بن نبي)- عن كثب أكثر من عقد من الزمان، فكان من أهم ما تَمَكَّنَ من ملاحظته أشار إليه (مالك بن نبي) بل وجعله الأصل الذي نُمَيِّز به بين المجتمعات، هو السمة البارزة بل والغالبة على حياة الإنسان فيه. إذ لا تكاد تجد مُؤَشِّرات السكون بارزة في أي منحى من مناحي الحياة البشرية عندهم (عمر النقيب، 2009، ص: 173).

3) شبكة العلاقات الاجتماعية ودورها في بناء المجتمع التاريخي المتحضر:

ناقش (مالك بن نبي) قضية "شبكة العلاقات الاجتماعية" في مواضع متعددة من أعماله الفكرية، لأهميَّتها في تحليل آليات بناء "المجتمع التاريخي" بحكم أنَّ هذه الشبكة هي، كما أَكَّدَ (مالك بن نبي) (عمر النقيب، 2009، ص: 183): **"العمل التاريخي الأوَّل الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده (مالك بن نبي، 1986، ص: 28)**، وهو يعني بهذا أنَّنا نصنع التاريخ حينما نقوم بنشاط مشترك، والذي يعني تقاسم الأدوار من جهة، وتكاملها من جهة أخرى، أي يجب أن تكون شبكة علاقاتنا قوية ومنسجمة ومتماسكة (محمد عاطف، 2009، ص: 127).

ولأنَّ طبيعة هذه "الشبكة" هي المؤشر الأساس الذي يدُلُّنا على درجة قوة أو ضعف المجتمع. كما يمكن للمجتمع البشري أن يحافظ على وجوده التاريخي واستمرار هذا الوجود من خلال اضطلاعه بوظيفته التاريخية بفضل مجموع الخصائص التي تُشَكِّل جوهر كيانه وتتجَسَّد في هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد هذا المجتمع. غير أنَّ أهم ما تقوم به هذه "الشبكة" إنَّما هو تحديد موقع كل فرد في المجتمع بالنسبة إلى غيره من الأفراد والدور الاجتماعي المنسجم مع مؤهلاته الفردية الفطرية والمكتسبة بما يحفظ للمجتمع انسجامه وتناغمه وقدرته على الأداء المتناسق والفعَّال للوظيفة التاريخية المنوطة به (عمر النقيب، 2009، ص: 183)، لذا وجب على الفرد أولاً أن يكرِّس جهوده لخدمة المجتمع بغية تحقيق تطوره وحينها يستطيع المجتمع في هذه الحال أن يوفر الضمانات لهذا الفرد ولغيره من الأفراد الذين سيدخلون هذا الحَيِّز الاجتماعي مستقبلاً (محمد عاطف، 2009، ص: 128): **"فالإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة، معرض للحرمان من الضمانات الاجتماعية، فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل فكأنَّني أحاول تحديد أسلوب حضارة. إذ أنَّني حينما أحقق**

الحضارة، أحقق جميع شروط الحياة، والأسباب التي تأتي بمتوسط الدخل المرتفع، بمعنى أنَّني أحقق الخريطة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية والثقافية أيضاً" (مالك بن نبي، 1979، ص: 163).

والمجتمع ليس كماً من الأفراد وكفى، وإنَّما هو بناء متكامل تربط بين أفراده روابط مقدسة...وأساس تماسك هذا البنيان الاجتماعي هو مجموعة المبادئ والقيم الأخلاقية...وأنَّ النشاط المشترك الذي يبني المجتمع ويدفع به نحو أبواب الحضارة والتحضُّر لن يتم في غياب هذا التماسك (محمد عاطف، 2009، ص: 131- 132): **"وكُلَّما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه" (مالك بن نبي، 1986، ص: 53).**

وإذا كان القانون الأخلاقي هو أساس التماسك الاجتماعي، فإنَّ مصدر هذا القانون الأخلاقي هو البعد الديني...ويؤكد (مالك بن نبي) أنَّ العلاقات الاجتماعي في حقيقتها ما هي إلَّا تجسيد للعلاقة الروحية بين الله والإنسان، إذ أنَّ هذه الأخيرة تُنشِئ قيماً أخلاقية، وهذه بدورها هي التي تحافظ على ترابط العلاقة الاجتماعية وتماسكها(محمد عاطف، 2009، ص: 132): **"فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معاً من الوجهة التاريخية على أنَّها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنَّها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد. فنحن نرى من الوجهة التاريخية أنَّ الحدثين يتو افقان، ونلاحظ من الوجهة الكونية بناءً على ما أسلفنا من اعتبارات أنَّ الحدثين يرتبطان ارتباط الأثر بالسبب في حركة التطور الاجتماعي فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الو اقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني (مالك بن نبي، 1986، ص: 56- 57).**

أمَّا ضعف العلاقة الدينية فيؤدي إلى ضعف وتمزق شبكة العلاقات بسبب ارتخاء التوتر واتساع الثغرات داخل هذه الشبكة إذ يقول (محمد عاطف، 2009، ص: 132- 133): **"وكلَّما ضعفت العلاقة الدينية...تزداد درجة الفراغ الاجتماعي بين الأفراد في محيط هذا المجتمع. وعلى عكس ذلك نجد أنَّه عندما تقوى العلاقة الدينية، وبقدر ما تقوى هذه العلاقة مثلاً بين نقطتي صفر و(أ)- فإنَّ درجة الفراغ الاجتماعي تقل، قلة تصبح معها صورة المجتمع بعض ما يوحي به قوله [صلى الله عليه وسلَّم]: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" فتلك صورة المجتمع الذي لا يوجد فيه فراغ اجتماعي" (مالك بن نبي، 1986، ص: 57).**

وبناءً على هذا الأساس، فإنَّه لا يكفي للمجتمع أن يكون غنياً في أفكاره حول نموذج الفرد والمجتمع اللَّذين يريد أن يبنيهما ليضمن قوَّة بنائه. ففعالية الأفكار إنَّما تتوقف على وجود "شبكة من العلاقات" على شكل قانون اجتماعي وأخلاقي ينظم المواقع الاجتماعية والأدوار الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد المكونين لهذه لهذا المجتمع بما يجعل المجتمع يتحرَّك بشكل متناسق ومنسجم نحو تحقيق أهدافه التاريخية (عمر النقيب، 2009، ص: 183، 184).

ولن يتأتَّى لنا هذا الانسجام في شبكة علاقات إلَّا إذا استطعنا تغيير نفسية الفرد ونقلناه من حالته الطبيعية أي من كونه مجرد كائن حي إلى حالته الإنسانية أي إلى كونه كائن اجتماعي...أو بمعنى آخر، إلَّا إذا حوَّلناه من مجرد فرد تسيطر عليه غرائزه المختلفة إلى شخص ملتزم بواجباته اتجاه غيره من بني البشر الذين تجمعه بهم روابط معيَّنة، قد تكون مادية كما قد تكون روحية فيؤدي واجباته عن قناعة وبإرادة ملتزماً غير ملزم، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على صيرورة المجتمع وحركيَّته التاريخية...فحينما تكون السيطرة لصالح النزعة الاجتماعية على حساب النزعة الفردية، فتلك هي بداية الطريق الموفق والصحيح باتجاه التغيير والنهضة والتحَضُّر (محمد عاطف، 2009، ص: 127).

هذه الشبكة هي التي تضفي على الأفكار فعاليَّتها بحكم الدور الذي تقوم به في تنظيم كل من المواقع الاجتماعية والأدوار الاجتماعية المُشار إليها آنفاً باعتبار أنَّ هذا هو المناخ الملائم لحركة الأفكار. كما أنَّ فعالية الفرد أيضاً إنَّما تتوقف على مدى قدرة المجتمع على تفجير طاقته الحيوية الكامنة على شكل استعدادات ومواهب فطرية، ومهارات مكتسبة تجعله مستعداً للقيام بالدور المنيط به بالشكل الذي لا يستطيع أن يقوم في مقامه غيره واستثمارها استثماراً أمثل يُمَكِّن المجتمع من أن يَتَّجه بكل طاقاته وقواه نحو أهدافه التاريخية (عمر النقيب، 2009، ص: 184).

فالأفكار الخلَّاقة إذن لا بد لها من مناخ تنمو فيه وبيئة تتحرك فيها وأنَّ النسيج الذي يضمن كل ذلك إنَّما هو "شبكة العلاقات الاجتماعية" بالنظر إلى الدور الدقيق الذي تقوم به في تحديد الوظائف والأدوار وتنظيم العلاقات بين عناصر الشبكة (عمر النقيب، 2009، ص: 184).

ونظراً للدور الذي تقوم به "شبكة العلاقات الاجتماعية" في بناء المجتمع التاريخي، اعتبر (مالك بن نبي) الوضعية التي تكون عليها هذه الشبكة بمثابة المرآة العاكسة لدرجة تطور المجتمع أو تَخَلُّفه، قوته أو ضعفه، ترابطه أو انحلاله (عمر النقيب، 2009، ص: 184): **"وهكذا الأمر دائماً، فإذا ما تطور مجتمع**

ما على أية صورة، فإنَّ هذا التطور مسجل كماً وكيفاً في شبكة علاقاته وعندا يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعَّالة، فذلك أمارة على أنَّ المجتمع مريض، و أنَّه ماضٍ إلى نهايته. أمَّا إذا تفكَّكَت الشبكة نهائياً، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، وحينئذٍ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ (مالك بن نبي، 1986، ص: 42).

ومن الأمثلة التي ضربها (مالك بن نبي) حول هذه القضية، وضعية المجتمع المسلم في آخر عهد (دولة الموحدين) في المغرب و(دولة العباسيين) في المشرق عندما بدأ المجتمع المسلم ذلك التراجع التاريخي عن الشهود الحضاري الثابت بموجب التكليف الربَّاني لهذه الأمة (عمر النقيب، 2009، ص: 184): **"فعندما بدأ هذا المجتمع دخوله حلبة التاريخ في القرن السابع الميلادي كان (عالم أفكاره) مازال جنيناً غامضاً، إذا ما قيس بالمجتمعات المتحضرة التي غزاها وهزمها في مصر وفي فارس وفي الشام. فإذا ما نظرنا إليه وقد أخذ بعد ذلك بستة قرون يترنح في مهاوي التدهور والانحطاط، وجدناه يملك أغنى مكتبات العالم آنذاك...لقد انهارتحت ضربات شعوب حديثة العهد بالوجود، كالإسبانيين الذين كان (عالم أفكارهم) لا يزال فقيراً نسبياً. وبذلك نرى أنَّ المكتبات لا تغني من الهزيمة شيئاً (مالك بن نبي، 1986، ص: 37- 38).**

ونتيجة لما سبق، فالأصل في فعالية الأفكار أو اضمحلالها إنَّما هو درجة الكثافة التي تكون عليها "شبكة العلاقات الاجتماعية" (عمر النقيب، 2009، ص: 185): **"أي إنَّنا لا يمكن أن نتصوَّر عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكُلَّما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعَّالاً مُؤَثِّراً (مالك بن نبي، 2009، ص: 38).**

ومن جهة أخرى، فإنَّ كثافة هذه الشبكة لا يمكن أن تتحقق إلَّا إذا تمَّت عملية تربية الفرد وتكييفه وإدماجه اجتماعياً بشكل ناجح- كما أشرنا- ولا يتمُّ النجاح إلَّا إذا تمكَّنا من نقل الإنسان من وضعية الفرد الذي يعيش لذاته ومن أجل المحافظة على نوعه بناءً على مبدأ الغريزة، إلى وضعية الشخص الذي يعيش لأمته ليحافظ على استمرارها في التاريخ بناءً على مبدأ رسالي. وهكذا يظهر أنَّ "شبكة العلاقات الاجتماعية" هي العامل الأساس لبناء المجتمع التاريخي (عمر النقيب، 2009، ص: 185).

لذلك نجد (مالك بن نبي) يُنَبِّه إلى أنَّ تماسك النظام الاجتماعي يقتضي الحد من حريات الأفراد، بمعنى أنَّ الحرية المطلقة للفرد داخل المجتمع ستؤدي إلى الفوضى بسبب اصطدام الجهود الفردية ببعضها، وبهذا المنظور تصبح الحرية الفردية المطلقة أداة للهدم بدلاً من أن تكون أداة للمنافسة والإبداع (محمد عاطف، 2009، ص: 129): **"ذلك أنَّ حرية (الفرد) يمكنها أن تكون كلية دون أن تضُر بمصلحة النوع (الفردي)، ولكن حرية (الإنسان) لا يمكنها أن تكون مطلقة إلَّا مقابل فوضى غير متلائمة مع جميع ضرورات التنظيم الاجتماعي، والنظام العام" (مالك بن نبي، 1991، ص: 109).**

خاتمة:

ومن خلال ما تطرقنا له، يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أنَّ "شبكة العلاقات الاجتماعية" هي بمثابة المفتاح الذي يفتح باب الحضارة وفعل التحضُّر في أي زمان ومكان، ولأي مجتمع كان مهما كانت طبيعة تركيبته الثقافية.

لذا- وكما رأينا- شَدَّدَ (مالك بن نبي) على بناء هذه الشبكة من العلاقات بين أفراد المجتمع لأجل الصالح العام، وهدم في الوقت نفسه، كل نزعة فردية ترمي إلى تحقيق مصلحتها الشخصية على حساب مصلحة المجتمع والأمة جمعاء.

ولن تتم هاته القناعة في فكر كل شخص منا، إلَّا إذا مَرَّ بتلك العمليَّة من الغربلة النفسوتربوية- إن صح التعبير- التي ترتقي بنا من الحالة الطبيعية (الغريزية) إلى الحالة الإنسانية (الاجتماعية)، ومن شأنها أن تنقلنا من صفة "الفرد" إلى صفة "الشخص".

وكما هو الحال عند الإنسان، فإنَّ المجتمع أيضاً سيشهد هذه النقلة النوعية من "المجتمع الطبيعي" إلى "المجتمع التاريخي"، لأنَّه وبكل بساطة، هذا الإنسان عندما يتحلى بصفة "الشخصنة" سيطبقها في الحيِّز أو المحيط الذي يعيش فيه ألا وهو "المجتمع".

وفي الأخير لا يسعنا القول إلَّا أنَّ (مالك بن نبي) لم يكن ليحظى بلقب "طبيب الحضارة" من العدم، أو بانحياز إيديولوجي عرقي وهذا باعتراف المفكرين الغرب بأنفسهم، كيف لا؟؟ وهو تناول بالفحص والدرس جميع المقومات والمعايير التي يمكن من خلالها أن نرتقي بمجتمعاتنا العربية والإسلامية

إلى ركب "الحضارة" ومن جميع الأنساق التي يمكن أن تشكل "المجتمع": (الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية، الدينية...الخ).

ولعل النموذج المثالي الحي الحاضر أمامنا، والذي يمكن أن نستدل به في مقامنا هذا هو: "ماليزيا" التي تبنَّت مشروع (مالك بن نبي) الإصلاحي النهضوي، مسجلة اسمها بأحرف من ذهب في سجل تاريخ الحضارات.

قائمة المصادروالمراجع:

- زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة (دراسة تحليلية ونقدية)، دار الفكر المعاصر، بيروت (لبنان)، ط1، 1998.

- عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، وهران (الجزائر)، ط1، 2006.

- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية، باش جراح (الجزائر)، ط1، 2009.

- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت (لبنان)، ط1، 1991.

- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة : بسام بركة، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط1، 1988.

- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (ج1)، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط3، 1986.

- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت (لبنان)، ط1، 1979.

- محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية (الجزائر)، ط1، 2009.